﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 39 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

لمّا بيّن الله تعالى في الآيةِ السّابقةِ "أنّ هؤلاء الكفّارَ إنِ انتهَوا عن كفرِهم حصلَ لهمُ الغفرانُ، وإن عادوا فهم مُتوعَّدون بسُنّةِ الأوّلين، أتْبعه بأنّ أمرَ بقتالِهم إذا أصرّوا فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾"[1].

عدمُ الانتهاءِ عنِ مُعاداة المؤمنين، بالإنفاقِ المريب، مُـؤْذنٌ بالفتنة والقتالِ الرّهيب

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: (فتن) أصلٌ يَدُلُّ على ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ. الفَتْنُ: الإحْراقُ. وشَيْءٌ فتينٌ: أيْ مُحْرَقٌ. ويُقالُ لِلْحَرَّةِ: فتينٌ، كَأنَّ حِجارَتَها مُحْرَقَةٌ. من ذلك الفِتْنَةُ. يُقالُ: فتَنْتُ أفْتِنُ فتْنًا. أصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذّهب النّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءته، واستُعملَ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذاريات: 14]، أي: عذابَكم، وجُعلتِ الفتنةُ كالبلاءِ في أنّهما يُستعملان فيما يُدفعُ إليه الإنسانُ من شدّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشّدّةِ أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالًا، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35][2]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ "معناها حتّى لا يُفتنَ أحدٌ عن دينه كما كانت قريشٌ تفعلُ بمكّةَ بمن أسلَمَ كبلالٍ وغيرِه"[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/515، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتن).

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والخازن، لباب التأويل: 2/312.

2) ﴿بَصِيرٌ﴾: (بصر) أصْلٌ وهو العِلْمُ بالشَّيْءِ؛ يُقالُ: هو بَصيرٌ به. ومِن هذه البَصيرَةُ، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ. وأصْلُ ذلك كُلِّه وُضوحُ الشَّيْءِ. البَصَرُ يقالُ للجارحةِ النّاظرةِ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: 77]، ويقالُ لقوّةِ القلبِ المدرِكةِ: بَصيرَةٌ وبَصَرٌ. ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ: إذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، والبَصيرُ: العالِمُ[1].

3) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: (ولي) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، و(تَوَلَّى) إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضَى معنَى الإعراضِ وتركِ قُربِه، كقولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63]، والتَّوَلّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 20][2].

4) ﴿نِعْمَ﴾: (نعم) أصْل يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، و(نِعْمَ) فعلُ ماضٍ لا يتصرَّفُ، وهو كلمةٌ تُسْتَعْمَلُ في المَدْحِ بإزاءِ بِئْسَ في الذَّمّ، قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: 44]، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقول: إن فعَلْتَ كَذا فبِها ونِعْمَتْ. أي: نِعْمَتِ الخَصْلَةُ هيَ، وغَسَّلْتُهُ غَسْلًا نِعمّا، يقال: فعَلَ كذا وأنْعَمَ، أي: زادَ، وأصلُه من الإنْعامِ[3].

5) ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: (ولي) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. والمولى يُطلقُ بإزاءِ معانٍ: فالمولى: النّاصرُ والمنعمُ وابنُ العمّ والحليفُ، قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد ﷺ: 11]. فالمولى هو النّاصرُ، والقائمُ بأمرهم. وكلّ مَن تولّى أمرَك فهو مولاك. والولاءُ يحصلُ لما فيه من معنَى القُربِ من حيث النّسبُ ومن حيث الدّينُ ومن حيث الصداقةُ والنّصرةُ والاعتقادُ، والوليُّ والمولى يُستعملان في كلِّ ذلك[4].

6) ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾: (نصر) أصْلٌ يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه. النَّصرُ: إعانةُ المَظْلوم، ونَصَرَ اللهُ المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عَدوِّهم، قال تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصَّف: 13]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: 116]، ونُصْرَةُ اللهِ للعبد ظاهرةٌ، ونُصْرَةُ العبدِ للهِ هي نصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعايةِ عهودِه،

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نعم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي).

واعتناقِ أحكامِه، واجتنابِ نهْيِه، والنَّصيرُ: النّاصِرُ؛ قالَ اللّه تَعالَى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تشريعُ القتالِ لغايةٍساميةٍ؛ حتّى لا يُفتَنَ أحدٌ عن دينِه، واللهُ يتولّى من أعرض وانحرف

يخاطبُ اللّه تعالى المؤمنين آمرًا إيّاهم بقتال المشركين "حتّى لا يكونَ شِرْكٌ وصدٌّ عن سبيل اللّه؛ ولا يُعْبَدَ إلّا اللّه وحدَه لا شريكَ له، فيرتفعَ البلاءُ عن عبادِ اللّه في الأرض، وحتّى يكونَ الدّينُ والطّاعةُ والعبادةُ كلُّها للّه خالصةً دون غيرِه، فإنِ انزجروا عن فتنة المؤمنين وعنِ الشّركِ باللّه، وصاروا إلى الدّين الحقّ معكم، فإنّ اللّه لا يخفى عليه ما يعملون مِن تركِ الكفرِ والدّخولِ في الإسلام، وإن أعرضَ هؤلاء المشركون عمّا دعوتموهم إليه - أيّها المؤمنون - منَ الإيمان باللّه ورسولِه وتركِ قتالِكم، وأبَوْا إلّا الإصرارَ على الكفرِ وقتالِكم، فأيقِنوا أنّ اللّه معينُكم وناصرُكم عليهم. نِعْمَ المعينُ والنّاصرُ لكم ولأوليائِه على أعدائِكم"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطْفِ الآيةِ على ما سبَقَ:

تحقيقُ الوعيدِ ردعٌ للكافرين

الجملةُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ وقد جاء الخطابُ عامًّا في الجملةِ المعطوفةِ ترغيبًا للمؤمنين في القتالِ، وتحقيقًا للوعيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3]؛ فعطفَ الجمعَ على المفردِ؛ لأنّ الغرَضَ منَ الجملةِ المعطوفِ عليها التّلطّفُ بالكافرين، وهو وظيفةُ النّبيّ وحدَه، فجاء الخطابُ بالإفراد، ولمّا كان الغرَضُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(2) مجموعة من المؤلفين، التفسير الميسر: 1/181.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والآلوسي، روح المعاني: 5/194.

منَ الجملةِ المعطوفةِ تحريضَ المؤمنين على القتالِ، جاء بالجمعِ، فخوطبوا جميعًا[1].

سرُّ التّعبيرِ بالأمرِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، ومعنى عوْدِ الضّمائرِ:

القتالُ واجبٌ عند الاعتداء، لدفع صولة الأعداء

في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ جاء فعلُ الأمرِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ للدّلالةِ على فرضِ القتالِ على المؤمنين، فهو أمرٌ للوجوبِ، والمرادُ بالضّميرِ المشركون من أهلِ مكّةَ[2].

دلالة (حتّى) على التّعليل، في السّياق:

تشريعُ القتالِ، لغايةٍ ساميةٍ وهدَفٍ نبيلٍ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عبّرَ عن غايةِ القتالِ بالحرف (حتّى) الدّالِّ على التّعليلِ، فإنّه "تعالى أمرَ بقتالهم ثمّ بيّنَ العلّةَ التي بها أوجبَ قتالَهم، فقال: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ ويخلصُ الدّينُ الذي هو دينُ اللّه من سائر الأديانِ، وإنّما يحصلُ هذا المقصودُ إذا زال الكفرُ بالكليّةِ"[3]، فالغايةُ منَ القتال إزالةُ أسبابِ الميلِ عنِ الدّين منَ الأصل، وذلك بإزالةِ الشّركِ على وجهِ التّمامِ[4].

غرَضُ التّعبيرِ بـ﴿تَكُونَ﴾ من حيثُ المادّةُ والصّيغةُ:

لا يسلمُ العبادُ إلّا باستئصالِ الباطلِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ عبّرَ عن إزالةِ الفتنةِ بفعلِ الكونِ ﴿لَا تَكُونَ﴾، ولم يقل: (وقاتلوهم حتّى لا يفتنوا المؤمنين)؛ ليدلَّ على انتفاءِ وجودِ الفتنةِ بانتفاءِ وجودِ أصلِها، وهذا أبلغُ ممّا لو تسلّطَ النّفيُ على الفتنةِ. وجاءَ التّعبيرُ بفعلِ الكوْنِ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ للدّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ وجودِ هذه الفتنةِ، وهذا يدلُّ على استمرارِ القتالِ ضرورةً حتّى تُزالَ كلُّ أسبابِ الفتنةِ.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/429.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/645، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/280.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فِتۡنَةٌ﴾، في السّياق:

من غـايـاتِ القتالِ ردُّ الفتنِ عـن المسلمين، قلّتْ أو كثُرتْ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ جاء لفظُ الفتنةِ بصيغةِ التّنكيرِ للتّعميمِ استقصاءً لكلِّ فتنةٍ، فيجبُ القتالُ حتّى لا يبقَى من شيءٍ من فتنةِ الكافرين للمؤمنين، حيث "كان المؤمنون في مبدأِ الدّعوةِ يُفْتَنون عن دينِ الله، فافْتُتِن منَ المسلمين بعضُهم، وأمرَ رسولُ الله ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة، وفتنةٌ ثانيةٌ وهو أنّه لمّا بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ بيعةَ العقبة، تآمرت قريشٌ أن يفتنوا المؤمنين بمكّةَ عن دينِهم، فأصاب المؤمنين جَهدٌ شديدٌ، فهذا هو المرادُ منَ الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالِهم حتّى تزولَ هذه الفتنةُ"[1]، فذكرَ الفتنةَ بالتّنكيرِ تعميمًا لكلِّ فتنةٍ من تلك الفتنِ خفيفةً كانت أو شديدةً، وقد يفيدُ التّنكيرُ التّعظيمَ، أي: فتنةٌ عظيمةٌ.

دلالةُ العطْفِ في جملة ﴿وَيَكُونَ﴾:

الدّين كلُّه لله، وهـو وحـدَه المعبودُ، بحقٍّ في هذا الوجود

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ لاشتراكِهما في الغايةِ منَ القتالِ، فشُرِعَ القتالُ لدفعِ الفتنِ عن عبادِ الله التي تُكرِهُهم على تغييرِ اعتقادِهم، وشُرِعَ ليكونَ الدّينُ لله تعالى وحدَه حيث لا إكراهَ لأحدٍ فيما يَدينُ لله تعالى به.

معنَى (ال) الجنسيّة في لفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾ ودلالتُها:

أصـلُ الـدّيـن واحدٌ، وكلُّه لله تعالى

في قولِه ﷻ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عرّفَ الدّينَ تعريفَ الجنسِ[2]، أي: ليكونَ جنسُ الدّين لله تعالى، وليس دينًا معهودًا واحدًا بعينِه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/347.

غرَضُ التّوكيدِ المعنويِّ بلفظ ﴿كُلُّهُۥ﴾:

لا دينَ حقٌّ إلا ما كان في الأساس خالصًا لله من دون النّاس

أكّدَ النّظمُ الكريمُ أن يكونَ كلُّ الدّين لله تعالى في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فلا يبقَى غيرُ الدّين الحقِّ، "وتضمحِلَّ الأديانُ الباطلةُ إمّا بإهلاكِ أهلِها جميعا، أو برجوعِهم عنها خَشيةَ القتلِ"[1]، فدلّ التّأكيدُ في ﴿كُلُّهُۥ﴾ على وجوبِ استمرارِ القتالِ حتّى تزولَ سائرُ الأديانِ المنافيةِ للتّوحيدِ، فهو تصريحٌ بمدى القتالِ الزّمنيِّ والغائيِّ.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في السّياق:

لا مندوحة من إخلاصِ الدّينِ لله العظيمِ ﷻ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ آثرَ التّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ في بيانِ الغايةِ بجعْلِ الدّين خالصًا له؛ للدّلالةِ على تعظيمِ الإخلاص في الدّين الذي يُجعلُ لله تعالى، فالدّينُ كائنٌ له بما له منَ الجلالِ فهو الملكُ الأعظمُ[2].

معنى اللّام في لفظ الجلالة (للّه):

لله تعالى الدّينُ الخالِصُ، وكلّ ما سواه ضلالة

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عبّرَ عن وجوبِ أن يكونَ الدّينُ خالصًا من كلِّ ما يشوبُه من شِركٍ أو باطلٍ أو خوفٍ[3]، وذلك بإدخالِ لامِ الجرِّ الدّالّةِ على المِلْكِ والاختصاصِ، فهو تعبيرٌ عن تخصيصِ الدّينِ بأنّه كائنٌ لله تعالى وحدَه مُخلَّصًا من كلّ دين وفكرةٍ تخالفُ التّوحيدَ.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ بين آية الأنفال: (39)، وآيةِ البقرة: (193):

تأكيدُ المعنى في أوّلِ نصٍّ يُغني عن تأكيدِ ما جاء لاحِقًا

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ تشابهٌ لفظيٌّ مع قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: 193]، غيرَ أنّه قد أضافَ التّأكيدَ بقولِه: ﴿كُلُّهُۥ﴾ في سورة الأنفال؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/21.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

"وذلك لأنّ هذه الآيةَ أسبقُ نزولًا من آية البقرةِ فاحتيجَ فيها إلى تأكيدِ مُفادِ صيغةِ اختصاصِ جنْسِ الدّينِ بأنّه للّه تعالى، لئلّا يُتوَهَّمَ الاقتناعُ بإسلامِ غالبِ المشركين، فلمّا تقرّرَ معنى العُمومِ وصارَ نصًّا من هذه الآية عدلَ عن إعادتِه في آية البقرة تطلّبًا للإيجاز"[1].

معنَى الفاءِ في جملة: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

حُكمُ من انتهَى بعدَ حُكمِ من لم ينتَهِ

لمّا أمرَ بقتالهم أعقبَه بقولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فالفاءُ للتّعقيب[2]، فلمّا كان حالُهم بعدَ الأمرِ بقتالِهم ودعوتِهم إلى الانتهاء يقعُ بين حالين؛ إمّا الإسلامُ، وإمّا الدّوامُ على الكفرِ، أعقبَه بحُكمِ من انتهى عنِ الكفرِ والقتالِ[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الشّرطيّةِ، المصدّرة بالأداة (إنْ):

ومَـــنَ أوفَـــى بعهْدِه من الله، فالله لا يخلف الميعاد

صيغَ حالُهم بفرضِ إجابتِهم وانتهائِهم عنِ الكفر في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ بصيغةِ التّعليق، فأجْراها مجرَى العَقدِ بين طرفَين؛ تأكيدًا لوقوعِ الجزاءِ حالَ وقوعِ الشّرطِ، فمنِ انتهى عنِ الكفرِ فإنّ جزاءَه ثابتٌ عند اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه تعالى بصيرٌ بما يعملون، فلا يخفَى عليه استحقاقُهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(إن) الشّرطيّةِ في سيّاق الآية:

السّـبْـقُ ببنـاءِ الأحكامِ، على ما سيقعُ افتراضًا، من مقاصد آي القرآن

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ(إن) الشّرطيّة دون (إذا)؛ لأنّ الغرضَ منَ الشّرطِ إجراءُ الأحكامِ على الحالاتِ المفتَرَضةِ، من غيرِ إشعارٍ بيقينِ وقوعِها أو التّشكيكِ به، فصاغَ تلك الحالاتِ بالجُملِ الشّرطيّةِ لبيانِ تعلّقِ ما يفعلون وما يؤولُ عنه. وقد أجراه مجرى العقدِ الدّالِّ على وجوبِ الإيفاء وتأكيدِ تحقّقِ الجزاءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/347.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/281.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في السّياق:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ابتدأ بالفاءِ التّعليليّةِ العاطفةِ على جوابِ الشّرطِ المحذوفِ؛ فالجملةُ تعليلٌ لجواب الشّرطِ المحذوفِ، فإنّ اللّه تعالى يُجازي أولئك الكافّين عنِ الكفرِ؛ لأنّه ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، أي "إنَّ اللّه عالمٌ لا يخفَى عليه شيءٌ يوصلُ إليهم ثوابَهم"[1].

يُجازي اللّه عبادَه؛ لأنّه يعلمُ ما يفعلون

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ إسنادُ صفةِ البصيرِ إلى اللّه تعالى، وقد عبّرَ بلفظِ الجلالةِ في إسنادِ صفةِ البصيرِ، تعظيمًا لعلْمِه "أي المحيطُ علماً وقُدرة"[2]، فالتّعبيرُ بلفظِ الجلالة يدلُّ على كمال ما جيء لبيانِه، فالذي يُبصرُ ويعلمُ ما تعلمون هو الذي له صفاتُ الكمالِ والجلالِ، فيكونُ علْمُه كاملًا تامًّا.

تعظيمُ علمِ اللّه بذكرِ لفظِ الجلالة، وتربيةٌ مهابتِه في النّفوسِ

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

كرّرَ لفظَ الجلالةِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ولم يقل: (فإنّه بما يعملون بصير)، فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ؛ تفخيمًا لمضمونِ الخبرِ بإظهارِ لفظِ الجلالة الدّالِّ على تعظيم الحيّزِ المذكورِ فيه، وفي ذلك تفخيمٌ وتعظيمٌ للجزاءِ المعلّقِ بانتهائِهم، أي إنّ اللّه العظيمَ ذا الجلالِ يعلمُ ما يفعلون فهو بجلالِه مُجازيهم عليه. كما أنّ "في إظهارِ الاسم الجليلِ تربيةً للمهابةِ"[3].

حيثُما ذُكرَ اللّه، فثمَّ التّعظيمُ والتّفخيمُ والجلالُ

الغرَضُ من تتابُعِ المؤكّداتِ:

الجملةُ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ اسميّةٌ مفيدةٌ لتأكيدِ مضمونِها، مع أنّها مؤكّدَةٌ بـ (إنّ)، وبتضمُّنِها لفظَ الجلالة،

الجزاءُ محقّقٌ لعلْمِ اللّه المؤكّدِ لكلِّ أعمالِ عبادِه

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/516.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/281.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/542.

وبتقديم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ على الخبرِ، فكلُّ ذلك التّأكيدِ بغرَضِ تأكيدِ علْمِه تعالى، وبيانِ تمامِ إحاطتِه بما يعملون، ويَؤولُ ذلك أخيرًا إلى تأكيدِ وقوعِ الجزاءِ المعبّرِ عنه بجُملةِ الشّرطِ.

معنَى الباءِ في: (بِما) في السّياق:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بالباءِ الدّالّةِ على الملابسةِ، للدّلالةِ على ملابسةِ علْمِه تعالى لكلّ ما يعملون، فلا يعملون شيئًا يغيبُ عن علْمِه، فقولُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ متعلّقٌ بقولِه: ﴿بَصِيرٌ﴾ الدّالِّ على العلْمِ، فكلُّ أفعالِهم متعلّقةٌ بعلْمِه لأنّه مُلابسٌ لها.

علمُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ أفعالِ العبادِ

معنى (ما) في: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الآية:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن أعمالِهم بالاسمِ الموصولِ (ما) الدّالِّ على العمومِ، أي: إنّ اللّه تعالى بصيرٌ "بعمومِ ما تعملون وتأملون، خبيرٌ يُجازيكم عليه بلا فوتِ شيءٍ منه"[1]. فهو تعالى عالمٌ بالأعمالِ كلِّها كبيرِها وصغيرِها، دِقّها وجلّها، وفي ذلك تأكيدٌ لتحقيقِ الجزاءِ الشّاملِ لكلِّ عملٍ. ويصحُّ أن تكونَ (ما) مصدريّةً، فإنّه – تعالى يعلمُ عملَهم بالجملة، فيكونُ عملُهم معلومًا له ﷻ، أمّا على اعتبارِ أنّها موصولةٌ فالمعنى أنّه يعلمُ بما يعملون على وجه الإفرادِ، فكلُّ عمل يعملونَه، فإنّ اللّه تعالى يُبصرُه، ولا تناقُضَ بين الدّلالتَيْن.

تأتي (ما) هنا موصولة أو مصدريّة، وكلاهما مفيدة في المعنى

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن أفعالِهم بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنّ العَمَلَ: كلُّ فعلٍ يكونُ منَ الحيوانِ بقصْدٍ[2]، فهو أخصُّ منَ الفعْلِ لما فيه من دلالةٍ على القصْدِ، كما يدلُّ العملُ على

كلُّ عملٍ متجدّدٍ يلزمُه تهديدٌ متجدّدٌ

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/280، والشّربينيّ، السراج المنير: 2/82.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

إيجادِ الأثرِ في الشّيءِ، فعقّبَ على انتهائِهم عنِ الكفرِ بالعملِ؛ لأنّهم قصدوا ذلك، والانتهاءُ عملٌ؛ لأنّه أحدثَ الأثرَ في تركِهم الكفرَ، وعبّرَ عن ذلك بصيغةِ المضارعِ؛ لأنّ هذا العملَ يدومُ ويتجدّدُ.

تَنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

في المـواجـهـةِ زيـادةُ تهديدٍ، وفي الغيبةِ شدّةُ غَضبٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قُرئ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لصيغة الغائبِ، وقُرئ (تعملون) بصيغةِ الخطابِ، فصيغةُ الغائب من تمام الحديثِ عنِ الكفّار في حالة انتهائِهم عن كفرِهم، وقراءةُ مَن قرأ بتاء الخطابِ يكونُ خطابًا للمسلمين، والمعنى فإنّ اللّه بما تعملون منَ الجهاد في سبيلِه، والدّعوةِ إلى دينِه، والإخراجِ من ظلمةِ الكفرِ إلى نورِ الإسلامِ بَصيرٌ يُجازيكم عليه أحسَنَ الجزاءِ[1].

وعلى القراءةِ الثّانيةِ بصيغةِ الخطابِ يكونُ في الآية التفاتٌ، فإنّ الفعلين: (تفعلون)، ﴿ٱنتَهَوۡاْ﴾ مُختلِفانِ بالخطابِ والغيبةِ، وهذا التفاتٌ، والغرضُ منه التّغليبُ، "أي: إنّه بصير بعملِكم وعملِهم، فيُثيبُكم جميعًا، ويُجازي كلًّا، بحسبِ عملِه"[2].

دلالةُ القراءة بصيغة الخطاب ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

الأجْرُ على النّيّةِ كـالأجْـرِ على الفعْلِ

القراءةُ بصيغةِ الخطابِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يتعلّقُ بفعل الشّرطِ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ "للدّلالةِ على أنّهم يُثابون بالسّببيّةِ كما يُثابُ المباشِرون بالمباشرةِ"[3]، فكونُ ثباتِ المؤمنين في القتال هو أحدُ أسبابِ انتهاءِ الكافرين عنِ القتال، فإنّ اشتراكَهم بهذا السّببِ يضمنُ لهمُ الأجرَ عندَ اللّه تعالى، فهو بصيرٌ بما يعملون.

الغرَضُ من تقديم شبْهِ الجملة: ﴿بِمَا﴾ على المسند:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 2/220، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/528، وابن الجزري، النّشر، 2/276.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/266.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/21.

على المسنَدِ، فأصلُ الكلامِ: (بصير بما يعملون)؛ لأنّه أخرجَه مخرجَ التّخصيص، إذ تخصيصُ العِلم بما يعملون، وهو لا يختصُّ بذلك دليلٌ على إرادةِ المبالغةِ في كوْنِ ما يعملونَه لا يخفَى منه شيءٌ، وأنّ اللّه عليمٌ به كعِلْم مَنْ تفرّغَ لشيءٍ لا يُلاحظُ شيئًا غيرَه، فإنّه لن تضيعَ عنه شاردةٌ، أو واردةٌ دونَه، فيكونُ علْمُه به علمًا دقيقًا.

علمُ الله تعالى محيطٌ بكلّ شيءٍ، إحاطَةَ من لا يعزب عن علمه شيء

بلاغةُ اختيارِ اسمِ ﴿بَصِيرٌ﴾ لفاصلةِ الآيةِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أن يعبّرَ عن علْمِه تعالى بما يعملون بلفظ البصيرِ دون العلْمِ، مبالغةً في ذلك العلْمِ؛ فعبّرَ عن علْمِه بالإبصارِ مع أنّ مِن أعمالِهم ما لا يُبْصَرُ، كأعمالِ القلوبِ[1]، وذلك تأكيدٌ للمبالغةِ المتحصِّلةِ بتقديمِ شبْهِ الجملة؛ فأكّدَ تلك المبالغةَ؛ "حيث جعلَ جميعَ ما يعملون مُبْصَرًا له تعالى، فعبّرَ عن علْمِه تعالى بالبصرِ مع أنّ قليلًا مِمّا يعملون منَ المُبْصراتِ"[2].

الرّؤيةُ أبلغُ منَ العلْمِ في التّعبيرِ عنِ الإحاطةِ بالأعمالِ

التّعبير بصيغةِ المبالغةِ مُنكَّرةً في: ﴿بَصِيرٌ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن علْمِه بلفظِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بصيغةِ المبالغةِ على وزنِ (فعيل) مبالغةً في هذا العلْمِ، و"إشارةً إلى العلْمِ بما يكونُ من ذلك خالصًا أو مَشوبًا، ففيه مزيدُ حثٍّ على الإخلاصِ"[3]؛ فشدّةُ العلْمِ تدلُّ على انكشافِ كلِّ شيءٍ، وورودُ هذه الصّفةِ في سياقِ معرفةِ الأعمالِ يفيدُ أنّ كلَّ عملٍ هو مُبصرٌ معلومٌ به، فيقعُ التّرغيبُ والتّرهيبُ على أتمِّ وجْهٍ، وقد آثرَ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ تعظيمًا لعلْمِه وتفخيمًا لشأنِ ذلك العلْمِ، وليس المرادُ حصْرَ صفةِ البصيرِ به ﷻ، إذ لو قال: (إنّ اللّه البصير

الـتّرهيبُ والتّعظيمُ يُناسبان سياقَ التّحذيرِ

(1) الشهاب، عناية القاضي: 2/222.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/357.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

بما يعملون) لكان دالًّا على الحصْرِ، وليس ذلك المرادَ، بل أراد تعظيمَ هذه الصّفةِ فجاء بها نَكرةً.

دلالةُ العطْفِ في: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

الـكـفّـارُ أمـامَ التّوجيه الرّبّانيّ، إمّـا مُـنـتَـهٍ مستجيبٌ، وإمّا معانِدٌ مكابرٌ

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾؛ إذ لمّا أمرَ بقتالِهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وأعقبَه بقولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لبيانِ حالِ مَن انتهى عن كفرِه وقتالِ المسلمين، عطفَ عليه حالَ مَن لم ينتَهِ فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ لكونِه أحدَ حالَيِ الكفّارِ بعد دعوتِهم للكفِّ عنِ الكفرِ والقتالِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ(إنْ) الشّرطيّةِ:

لا يُستبعدُ إصرارُ الـكـفّـارِ على الكفْرِ، ومحاربةِ المؤمنين في كلّ عصر

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، عبّرَ فيه عن ثاني أحوالِهم على سبيل الافتراضِ بالجملةِ الشّرطيّةِ، تأكيدًا لوقوعِ الجزاءِ حالَ وقوعِ الشّرط، وآثرَ التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ لأنّ انتهاءَهم في الجملةِ الأولى سيقَ على سبيلِ الافتراضِ، فأجرَى في تولّيهم على السّبيلِ ذاتِه، وذلك باستعمال (إن) الشّرطيةِ الدّالّةِ على عدمِ اليقينِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الشّرطيّةِ:

إعراضُ الكافرين عنِ الإيمان لن يضرَّ مَن كان اللهُ وليَّه

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ صيغَ التّولّي وما تعلّقَ به من ولايةِ اللّه تعالى للمؤمنين ونصرِه إيّاهم صيغةَ العَقدِ بين طرفَين؛ دلالةً على تحقُّقِ غلبةِ المؤمنين وخُسرانِ الكافرين، وفي ذلك تبشيرٌ للمسلمين بحُسنِ مآلِهم.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن تولّيهم للدّلالةِ على أنّ تولّيَهم

عادةٌ لهم، وأنّهم مُصرّون عليه، فهم ماضون في قتال المؤمنين تمسّكًا بدينِهم وضلالِهم[1].

الفعلُ المضارعُ يدلُّ على الإصرارِ والمداومَةِ

معنى الفاء في لفظ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ ربطَ فعْلَ الشّرطِ بجوابه بالفاء الرّابطةِ؛ لأنّ الجوابَ جملةٌ طلبيّةٌ[2]، وفي ذلك تنبيهٌ للمؤمنين باستحضارِ كونِهم تحت ولايةِ اللّه تعالى حالَ تولّي الكافرين، فافتتاحُ "جملةِ جوابِ الشّرط بـ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصْدِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ وتحقيقِه، أي: لا تغفلوا عن ذلك"[3].

استحضارُ ولايةِ اللّه في الأذهانِ واجبٌ حالَ العدوانِ

الغرَضُ منَ الأمرِ بالعلْمِ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾، بنَى جوابَ الشّرطِ على الأمْرِ بالعلْمِ، "وافتتاحِ جملةِ جوابِ الشّرطِ بـ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصْدِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ وتحقيقِه، أي: لا تغفلوا عن ذلك"[4]. فالعلمُ بأنَّ اللّه تعالى وليُّكم يجبُ أن يكونَ حاضرًا في الأذهانِ مُحقّقًا في النفوسِ، وفي ذلك مبالغةٌ في الأمرِ بالإيمانِ والثّقةِ بنصْرِ اللّه تعالى، فتكونُ تلك الثّقةُ معلومةً ثابتةً ثُبوتَ العلْمِ غيرَ قابلةٍ للشّكِ والتّذبذُبِ.

تحقيقُ اليقينِ بنصْرِ الله تعالى أمرٌ لا شكّ فيه ولا ريب

دلالة الموقع النّحويّ للمصدَر السّادِّ مسدَّ مفعولَيْن:

أوقعَ فعلَ العلْمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ على كوْنِ اللّه تعالى وليِّكم، فالجملةُ "في تأويلِ مصدَرٍ سادٍّ مسدَّ مفعولَيْ (اعلموا) تقديرُه: فاعلموا، وأيقنوا كوْنَ اللّه تعالى مولاكم، وناصرَكم"[5]. فالولايةُ معمولُ الفعْلِ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فكَوْنُ اللّه تعالى

الإيمانُ بوعْدِ اللّه والثّقةُ بنصْرِه ضمانٌ وأمانٌ

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/312.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/429 - 430.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/430، والخازن، لباب التّأويل: 2/312.

وليَّكم يجبُ أن يكونَ معلومًا لكم حاضرًا في أذهانِكم لأنّه منَ الإيمان وواجبِ الاعتقاد.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

ولايةُ الله أعظمُ الـولايـاتِ على الإطلاقِ

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ﴾، آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يُعبّرَ بلفظِ الجلالةِ في بيانِ ولايتِه تعالى للمؤمنين، فالتّعبيرُ بالاسمِ الدّالِّ على الملكِ الأعظمِ ﷻ أبلغُ في سياقِ الكلام عن ولايتِه لعبادِه، "أي: الذي له الإحاطةُ الكاملةُ بكلِّ شيءٍ"[1]، فلا وليَّ أعظمُ منه تعالى، والغايةُ تثبيتُ قلوبِ المؤمنين.

دلالةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ﴾:

ولايـــةُ الـلـه ضمانةٌ للعبد، وحمايةٌ له

جاء النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ﴾ في غايةِ التّأكيدِ، فجاءَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على تأكيدِ مضمونِها، وكونِها مؤكّدةً بـ (إنّ)، وكونِ المسنَدِ إليه لفظَ الجلالةِ المفيدَ تعظيمَ مضمونِ سياقِه، وكلُّ ذلك تأكيدٌ لولايةِ اللّه تعالى للمؤمنين وتقويةٌ لما تتضمّنُه من حُكْمٍ، وفائدةُ ذلك تثبيتُ مضمونِ الجملةِ في أذهانِ المسلمين.

فائدةُ إضافةِ المولَى إلى الضّميرِ في لفظ ﴿مَوْلَىٰكُمْۚ﴾:

مـن كـان الـلـه مولاهُ فلا غالبَ له

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ﴾ أضافَ لفظَ المولَى لهم تثبيتًا لهم وتقويةً لقلوبِهم، أي: فاعلموا أنّ اللّه تعالى "ناصرُكم، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتِهم"[2]، كما أنّ في هذه الإضافةِ تكريمًا لهم بكونِهم في كنَفِ اللّه تعالى وحفْظِه.

دلالة جملة الاستئناف على معنى التّذييل للآية:

مـــدحُ الـحـقِّ نـفـسَـه تثبيتٌ لقلوبِ العبادِ

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مستأنفةٌ، فلمّا أخبرَهم أنّه هو مولاهُم "استأنف مادحًا نفسَه بما هو أهلُه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/59.

تعريفًا بقدرِه وحثًّا للمؤمنين على التّمسّكِ بوَلايتِه[1]، فهو "نعمَ النّاصرُ على الأعداء، فلا يُغلبُ من نصرَه، وكلُّ مَن كان في حمايةِ اللّه تعالى كان آمنًا منَ الآفاتِ، مصونًا عن المخلوقاتِ، وهذا ثناءٌ منَ اللّه تعالى على نفسِه، فهو حمدٌ قديمٌ لقديمٍ"[2]، فلمّا أمرَهم بوجوبِ العلْمِ بكونِه وليَّهم، أعقبَهُ بالثّناءِ على حُسنِ ولايتِه، فهي "بمنزلةِ التّذييلِ"[3] لجملةِ جوابِ الشّرطِ.

بلاغةُ الحذْفِ في صيغة المدح المصدّرة بلفظ ﴿نِعْمَ﴾:

إبـرازُ المعنَى في صـورةِ الـظّاهرِ المعروفِ أوفَى في التّعبيرِ عنه

قولُه ﷻ: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مدحٌ وثناءٌ منَ اللّه تعالى على نفسِه ﷻ، جاء بصيغةِ المدحِ بالفعلِ (نِعْم)، وهذه الصّيغةُ عبارةٌ عن جملةٍ فعليّةٍ من فعلٍ وفاعلٍ تُعربُ خبرًا عن مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (هو)، وهذا المبتدأُ هو الذي صيغَ المدحُ له، ويُسمَّى المخصوصَ بالمدح، وهو محذوفٌ وُجوبًا[4]، وإنّما حُذفَ اعتمادًا على ظهورِ المعنَى وطلبًا للإيجازِ، كما أنّ الحذْفَ هنا فيه فائدةٌ تتمثّلُ بالاهتمامِ بصفةِ المدح، وما وقعَ فيه الثّناءُ، فيتركّزُ انتباهُ السّامعِ على ذلك، فإنّما صيغَ المدحُ؛ لأنّ مذكورًا قد سبقَ ذكرُه في السّياقِ، فلمّا عُلِمَ اكْتُفيَ بإظهارِ وجهِ المدحِ عليه.

بلاغةُ عطْفِ: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ في السّياق الحكيم:

مـدحُ الـنُّـصـرةِ تأكيدٌ للولايةِ، الضّامنة للحفظ والوقاية

قولُه تعالى: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ معطوفٌ على قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لِما في لفظةِ ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ من معنَى النّصرِ الذي يوافقُ لفظَ ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾[5]. فأفادَ هذا العطفُ التّأكيدَ، إذ إنّ المولَى لا يقتضي أن يكون نصيرًا، فذكرَ النُّصرةَ معطوفةً على الولايةِ تأكيدًا لشُمولِ الولايةِ للنّصرةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/422.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 9/348.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/645، والهرري، حدائق الروح والريحان: 10/430.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.

معنَى (اللّام) في ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ ودلالتُها:

الولايةُ والنّصرةُ راسختانِ في الممدوحِ أصالة وعظمة

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ عرّفَ (المولَى والنّصيرَ) بالألفِ واللّامِ الدّالّةِ على العهدِ الصّريحِ؛ والمعهودُ قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾، وأفادَ هذا التّعريفُ أنّ الصّفةَ المصاغةَ للمدحِ، وهي الولايةُ والنّصرةُ معروفةٌ راسخةٌ في الممدوحِ، وأنّ المدحَ جاءَ تنبيهًا وتنويهًا بهذه الصّفاتِ.

فائدةُ التّعبيرِ عن نصْرِ الله بصيغةِ المبالغةِ:

من نصرَه الله فلا غالِبَ له

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ عبّرَ عنِ الثّناءِ على نصْرِه بإيرادِ النّصرِ على صيغةِ المبالغةِ بيانًا إلى أنّه لا يُغلَبُ مَن نَصرَه[1]، فإنّ أفعالَ اللّه تعالى لا تتأثّرُ بالمبالغةِ، فتدلُّ صيغةُ المبالغةِ فيها على أثرِ المتعلّقِ، فالمبالغةُ في النّصرةِ متعلّقةٌ بتأكيدِ انتفاءِ تحقُّقِ الغَلَبِ على من أرادَ اللّه تعالى أن ينصرَه.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ غيرِ الطّلبيِّ:

تأكيدُ المدحِ والثّناءِ طُمأنينةٌ للعبادِ

قولُه عزّ ذكرُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جملةٌ إنشائيّةٌ مستأنفةٌ؛ لأنها إنشاءُ ثناءٍ على اللّه تعالى وهي بمنزلةِ التّذييلِ جاءت لتأكيدِ قولِه: (فاعلموا أن اللّه مولاكم) فصيغَ المدحُ والذّمُّ منَ الإنشاءِ غيرِ الطّلبيِّ؛ لأنّه لا يستدعي مطلوبًا وقتَ الكلامِ، فهو يتحقّقُ وقتَ اللّفظِ، فلا وجودَ خارجيٌّ له. وهو أسلوبٌ يُعبّرُ عنِ الثّناءِ والإعجابِ بالشّيءِ بألفاظٍ معيّنةٍ.

علّةُ سقوطِ الفاءِ السّببيّةِ، مقارنة بورودها في موقع آخر:

لا تتوقّفُ ولاية اللّه تعالى على علّةٍ كونه نعْمَ المولَى فقط

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جاءَ الفعلُ ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ بلا فاءٍ، وقد جاءَ بالفاءِ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59.

﴿٧٨﴾ [الحج: 78]، فلم "يُدخلْ فاءَ السّببِ هنا؛ لأنّ المأمورَ به العِلمُ، واعتقادُ كونِه مولىً واجبٌ لذاتِه لا لشيءٍ آخرَ، بخلاف ما في آخر الحجّ، فإنّ المأمورَ هناك الاعتصامُ"[1]، فالعلمُ بالولايةِ أتبعَه ثناءً على ولايته، فليس هنا علاقةٌ سببيّةٌ؛ إذ لا تتوقّفُ ولايتُه على علّةِ كونِه نعْمَ المولَى، أمّا في سورة الحجّ فأمرَهم بالاعتصامِ؛ لأنّ مَن تعتصمون به جديرٌ بهذا الاعتصام ففيه بيانُ العلّةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الفتنة) و(البلاءُ) و(الامتحانُ):

الفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنْسان منَ الخَيْر والشَّر، وهي الّتي آثرها السّياق

الابْتِلاء: في الأصْل: التّكليفُ بالأمرِ الشّاقِّ، ولا يكونُ إلّا بتحميلِ المكارِه[2]، والفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنْسان منَ الخَيْر والشَّر، يُقال: فتنتَ الذَّهَبَ بالنّار، لتعلمَ أنّه خالصٌ أو مُشوبٌ، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنَّها مشتقّة منَ الحرق بالنّار[3]، والمِحْنَةُ: واحدةُ المِحَنِ التي يُمْتَحَنُ بها الإنسانُ من بليَّةٍ. ومَحَنْتُهُ وامْتَحَنْتُهُ، أي اختبرتُه، والاسمُ المِحْنَةُ. مَحَنَهُ سَوْطًا: ضَرَبَهُ[4]، وإنّما آثرَ أن يعبّرَ بالفتنةِ في هذا الموضع؛ لأنّه في سياقِ فتنةِ المؤمنين بالتّعذيبِ.

التّولّي والإعراضُ:

التّولّي يقتضي الابتعادَ بعْدَ قُربٍ، والإعراضُ يدلُّ على الصّدودِ والانصرافِ

(وَلَيَ) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، و(تَوَلَّى) إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراض وتركِ قُربِه، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5]. أمّا أعْرَضَ فمعناه: أظهر عَرْضَهُ. أي: ناحيتَه. وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ. قال: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السّجدة:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 216، والكفويّ، الكليّات، ص: 34.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217، والكفوي، الكليات، ص: 692.
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (محن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).

22[1]. التّولّي مشتقٌّ منَ الولْي بمعنى القُربِ، فيكونُ التّولّي عن شيءٍ يدلُّ على الابتعادِ عنه؛ لأنّه أعرضَ عنِ القُربِ منه. أمّا الإعراضُ فهو الصّدُّ والامتناعُ، وهذا يدلُّ على أنّ التّولّيَ أغلظُ منَ الإعراض؛ لأنّه كان قريبًا ثمّ تولّى وابتعدَ. والآيةُ في سياقِ القتال وعرْضِ الانتهاءِ عليهم، فإمّا أن يدخلوا الإسلامَ، أو يتولّوا ويتوغّلوا في عداوةِ الإسلام.

الولايةُ والنّصرةُ:

الولايةُ أدلُّ على المودّةِ، والنُّصرةُ أدلُّ على الإعانةِ

بين الولايةِ والنُّصرةِ فرقٌ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجه، فليس كلُّ وليٍّ ناصرًا، وليس كلُّ ناصرٍ وليًّا، وقد يجتمعان، فيكونُ الوليّ ناصرًا؛ فإنّ "الولايَة قد تكونُ بإخلاص المَوَدَّة، والنّصرةُ تكونُ بالمعونةِ والتّقويةِ، وقد لا تُمكنُ النُّصْرَةُ معَ حُصول الولايَة، فالفرقُ بَينهما بَيّنٌ"[2]، وقد جمعَ بينهما في قولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تحقيقًا للمعنيَيْن، الولايةِ والنُّصرةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عرض).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189.

الجُزءُ العَاشِرُ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»